لوح ثلج

قصة : محمود تيمور

فى خيال كل امرىء بطولة مثاليـة يطمع أن يحـــرزها ، وبطـولة السيد « دكروري » التى يحرص على ألا يباريه فيها أحد ، هى أن يكون حامـــل الثلج المثالى .

لقد تخير هذه المهنة له ، وأولاها كل جهده ، مهنة حمل ألواح الثلج من المصنع فى ضاحية المدينة الى « **قهـوة النزهة** » المشرفة على شاطىء البحر وليس الطريق بين المصنع والقهوة بالقصير ، ولا هـو بالسهل الميسور ، بيد أن « دكروري » يقطعه مشبوب النشاط ، لا يعروه ضيق أو ملال .

لا يكاد يهل الصيف ، وتستقبل «قهوة النزهة» روادها من المصيفين حتى يتجلى الرجل بجسد ضامر ، وقامة مبسوطة ، ووجه بارز العظام ، ولكأن رأسه المستطيل شمامة قرعاء ٠

وانك لتراه يتدفع بخطافساح ،متعالى الهامة ، من زهو واعتزاز ، وفمه منشق عن ابتسامة عريضة فيها مخايل سذاجة واستخفاف ، وان هذه الابتسامة لهى الطابع المميز له ، فيها تتبلور شخصيته، وهى تتراءى على الفور سابحة على وجهه، تبتلع قسماته ، على حين يتمدد على كتفه لوح الثلج الغارق فى برودته فى ركون واستسلام !

والناس جميعا ،سواء المصيفون منهم وغير المصيفين ،لايذكرون متى بدأ السيد **دكروري** يزاول مهنته تلك ، ولكنهم يذكرون أنهم يرونه فى كل صيف ، وقد يخيل اليهم أن مزاولته لتلك المهنة كانت منذ حقب لايعرف مداها ٠وليس الرجل نفسه أكثر معرفة بشأنه من الناس حوله ، فقد أسقط من حسابه نظرية الزمن وقياس الاعمار ،لايبالى من الشهور والاعوام ، قدر ما يبالى استمتاعه بالحياة وفق هواه ، فى نطاق يومه المشهود ،بل فى حدود لحظته السانحة !

حسبك من السيد **دكروري** انه رجل واجب ، وأنه عفيف أنوف ، وهو فى ترفعه عنيد الى الغاية القصوى ، أما كسبه فيأتيه من موردين : الاول أجره على حمل الواح الثلج ، والآخر ما يمنحه اياه رواد القهوة لقاء ما يقوم به لهم من أعمال وخدمات ٠

والسيد دكروري لا يؤدى كل عمل يطلب اليه أن يؤديه ، فله مزاج خاص فيما يقبل أن يعمل ، ومحال أن تقسره على عمل يأباه ، حتى لو استعنت على ذلك بأن تسوقه الى دار الشرطة سوقا ٠ فهو يظل أمامك كالصنم الصلد، يطالعك بوجهه المستطيل الاصم ، لا تطرف له عين ، ولا تختلج فيه جارحة ، فلا تملك أنت الا أن تطلق ضحكة ساخرة جوفاء ، ولا يملك هو الا أن يحييك بأحسن من تحيتك أو يردها عليك ، فيعلو صوته بضحكة طائشة شوهاء ، وهو يتحسس بأصابعه العابثة قمة الشمامة القرعاء !

والرجل يعلن فى كل مناسبة ، بل فى غير مناسبة ، أنه يرفض الهبات والعطايا ، فليس هو بالمستجدى ،ولكنه رجل يكسب رزقه بعرق الجبين ،وما يمد يده الى درهم الا كان جزاء حلالا على عمل نهض به ، وانه لرجل قنوع بما يناله من كسب وان قل ، فاذا توافر له فى يومه *الرزق بادر الى انفاقه مجهزا عليه* وان كثر ، فنظرية الاقتصاد أو الادخار لا تعرف الى عقله طريقا ، وأما الحكمة القائلة بأن القرش الابيض ينفع فى اليوم الاسود ، فلا مكان لها فى حياته، وهو يعتبر أيامه كلها بيضا لن يغشاها سواد ٠٠٠٠ واذا لم يكن بد من حكمة يطمئن اليها ويتخذها شعارا له فى سلوكه الاجتماعى ، فهى الحكمة القائلة : اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب !

وان حرصه على أداء واجبه على الوجه الأمثل ، ليجعله يستمسك بالدقة فى ايصال الواح الثلج الى القهوة فى المواعيد المرسومة ليل نهار ، وليست عنده ساعة يستعين بها على معرفة المواقيت ، ولا هو يرضى أن ينزل عن كبريائه ليسأل أحدا ممن يحملون الساعات ، وما أغناه عن التعرف والاستخبار ، فهو قادر على تعيين الزمن بحاسة طبيعية تخلقت فيه ،ونمت نموها حتى صارت عنده حاسة سادسة !

يغادر المصنع فى الوقت المحـــدد ، وعمود الثلج عـلى كتفه ، ويصـــل الى القهوة فى الساعة المنتظرة ، لا يستقدم لحظة ولا يســتأخر ، واذا رأيته وهــو يتسلم من المصنع لوح الثلج ، ألفيته يعنى به كأنما هـــو طفل تترفق به أم رءوم ، يتناوله متلطفـا ، ثم يدرجه فى الخيش المعد له كأنه قماط يحميـه من عاديات الجـو ، وينطلق به فى الطريق انطلاق الصاروخ لا يعوقه شيء. فالمعابر مفتحة الابواب أمامه ،والسابلة من حوله تتباعد وتتفرق مخلية له وجه السبيل . ويظل على حاله حتى يبلغ محطة الوصول، شامخ الانف ، يملكه شعور الانتصار ، وما ان يمر بحمله ، وجســـمه مندى بقطرات الماء البارد ، حتى تحس نسمة رطبـة تهب نحـوك فى يومك القائظ ، فتكسبك الراحة والانتعاش .

وأسعد الأيام عند « دكـروري » هى الأيام التى يتلهب فيها الجو ، تلك أيامه المباركة ، فيها يبلغ ذروة نشوته ، فهو يجوز بين الناس متخطرا ، يحمل لـوح الثلج ، وهم يصاولون سياط الشـمس الحامية ، ووهجها اللاسع ، فيرميهـــم بنظرات تنفخ واستعلاء ، ولســان حاله يقول : أين أنتم منى أيها المســـاكين التعساء ، انكم فى النار تصلونها ، وأنا منها فى برد وسلام ! .

ويوما صحا الســـيد **دكروري** من نومه ، على مألوف عادته ، وزايل مأواه يتثاءب ويتمطى ، فاذا ضوء الشـــمس الساطعة يجبهه ، واذا الهواء الســاخن الثقيل يلفح وجهه ، واستبان له أنه فى يوم من أيام الصيف العاتية ،ولاحت على فمه بسمة فيها السخرية وفيها التحدى، وحث الى المصنع خطاه ، وكلما أمعن فى السير أحس وطأة الجو الحار تحيط به ، فلقد انبرت الشمس تصب على الأرض جام الغضب ... وما كان ذلك بالجديد على السيد **دكروري** ، فلم يعقه عن أداء واجبه وبلغ مصنع الثلج ، وســـمع رئيس العملة يقـول : « **شـــد حيلك يادكروري ، أسرع حتى لا يذوب الثلج!**»

فحدق الرجل اليه ماوسعه أن يحدق، وهو يجيب : « **لوح الثلج معى يزيد ولا ينقص ، مهما يتغير الجو يا معلم ...** »

فقال رئيس العملة : « **حقا ان جسمك مصنع ثلج آخر ، يعوض اللوح عمـــا ينقص منه !** »

وأتبع قوله ضحكة مجلجلة ، ولكن « **دكروري** » قابلها بصمت وجمـود ، وغادر المصنع صلب الملامح ، فى نظراته جد وتصميم ، واللوح مستقر على كتفه، ملفف فى خيشـــة ، وأحس برد الثلج يرطب جسده ، فنشط فى السير ،وهو يمد خطوه ، ويضرب الهواء بيمناه ، كما يضرب الملاح الدرب موج البحر بمجدافه الشديد .

وطاف برأسه خاطر : **لماذا لا يغـــير خط السير ، فيختزل الطريق** ؟ انه على علم بأن ثمة سبيلا آخر غير مطـــروق يفضى الى الشاطىء ، لو ســـلكه لبلغ القهوة فى زمن أقصر ... لم يســـبق له أن اتخذ هذا السبيل ، ولكن مـــاذا عليه ان فعل ، وهو ابن المنطقة ،لايخشى على نفسه فيها من شيء ؟ سيبلغ القهوة قبل الموعد المألوف على الرغم من وقدة الحر ، ولن ينقص لوح الثلج الا بعض قطرات ... ســـتقع المعجـزة ، وانه لصانعها...سيفوز بالبطولة ، وسيظفر من القوم بالتمجيد والاكبار .

وما عتم أن أنفذ الفكرة ، وســار على الدرب الجديد ، وقطع شوطا فيه ، وكان كلما دفع بخطاه اشتدت مغالبة الهـواء

الساخن له ، فالطريق مفض الى الخلاء ، وفوق ذلك فهو غير معبد ، تسيخ الأقدام فى رماله ، الا أن السيد **دكرورى** » لم ييأس ، وواصل سيره ، محدا من عزمه ، مستمدا من ذلك العمود البلورى المستريح على كتفه ما يبعث فيه النشاط والانتعاش ٠

ولاطف العمود بيده وهو يبتسم ٠٠٠ وهبت عليه بغتة عاصفة رملية طمست عينيه ، فتريث قليلا يمسح وجهه ، ثم استأنف السير ، وقد هدأت العاصفة ٠

وغاصت قدماه فى رمال حارة كاوية ، فكأنما هو يمشى على جمر يتضرم ٠٠٠

وتقاطر الماء على كتفه غزيرا ، فامتزج بقطرات العرق المنبثق منه ، وما هو الا أن ألقى ثيابه لاصقة بجسده ، كأنما هى قطعة من جلده ٠٠٠

وتحسس عمود الثلج ، فرجف قلبه ، وسرعان ما ضاعف من جهده ، واضطر أن يقف هنيهة يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، ورمى ببصره يمنة ويسرة : بقعة جرداء لا يتبين فيها الا عتمة بسطتها ذرات الرمال الدكناء ٠ أية وجهة يولى ؟ انه لا يخطىء أبدا ، فطرته دائما تهديه ، أليس فى قدمه ابرة مغنطيسية خفية تتجه به الى بر الأمان ؟

وعاد يتحسس عمود الثلج ، فهاله الأمر ٠٠٠ يالله ٠٠٠ ان العمود ليتضاءل ، بل ينهار ٠٠٠ فابتعث من من ضعفه قوة ، وزج بقدميه المكدودتين يقتلعهما من الرمل كما يقتلع جذر شجرة من باطن الأرض ٠

ليبلغن القهوة لا محالة ٠٠٠

ولكن ٠٠٠ واأسفاه ٠٠٠ لن يتسنى له تسليم عمود الثلج صحيحا كاملا ! وواصل السير ، وقد اربدت سحنته الخرساء ٠

ومضى يستهدى فطرته فى عرض الطريق ٠٠٠

ولكن ماذا تستطيع الفطرة أن تصنع فى تلك المتاهة العنيدة ؟

وعن له أن يعود الى الطريق المعبد ٠٠

وأراد أن يحدد مكانه : أين هو ؟ فأعياه الأمر ٠٠٠ أتكون الابرة المغنطيسية فى قدميه قد أصابها عطب !

انه ليحس الضياع ، بل يحس بأنه حبيس سجن عظيم ، له أن يدور فيه ما شاء ، دون أن يتخطى أسواره ٠٠٠

أليس فى مستطاعه حقا أن يخلص من ذلك السجن الرهيب ؟

أليس ثمة من حيلة تعينه على أن يبلغ الشاطىء المفقود ؟

الخلق هنالك متجمعون يرتقبون مقدمه وان عددهم ليتضاعف كلما مر الوقت ، فقد أصبحوا حشدا عظيما ، وسيلقونه بالهتاف ممجدين جهاده الكبير ٠٠٠ أتراه يخيب ظن الناس به ؟

وانطلق فى الطريق ، وقد شد من عموده ، وعلا بهامته ، والارهاق آخذ منه كل مأخذ ٠

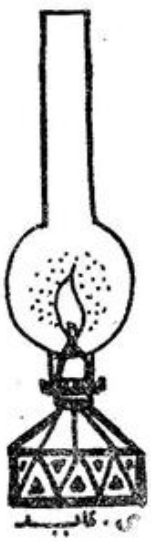

وتكاثفت العتمة من حوله ، عتمة الرمال التى تذروها الرياح ، فكأنما الليل مقبل يجر وراءه أكداس الظلام ...

وعزت عليه الرؤية الواضحة ، وجعل يدور فى تلك الدوامة الغبراء ، محاولا جهده أن يتنكب عن مواجهة العاصفة ، فهو يحيد عن مهبها ريثما تسكن ، وهو يجنح الى وجهة تحميه ما أمكن ...

وتشابهت تجاه عينيه كثبان الرمال ، وأدرك أخيرا أنه قد ضل حقا معالم الطريق . وشعر بأن شفتيه يعروهما جفاف ، وأن لسانه يجمد ، وحلقه يتشقق ، بل شعر بأن أضراسه تلوك حبات الرمال ، ولا يستطيع أن يلفظها ، وأن جسمه الذى وصفه رئيس العملة بأنه مصنع ثلج قد استحال فرنا يعمل على اذابة الثلج .

وانتظمته رجفة عارمة ...

وعاد يتحسس العمود على كتفيه ، فراعه ما ناله من ضمور ...

وكأنما أصابه مس ، ولم يعد له من شاغل الا ذلك العمود الذى يكاد يفنى ، فجعل يتفقده فى اللحظة بعد اللحظة ، ويتلقى ماءه المتسايل ، كأنه جريح يفقد حياته نزفا .

وأخيرا ألفى جسده يتهاوى وسط كثبان الرمال ، وأنزل العمود عن كتفه ، وطفق يعيد ادراجه فى خرقته ، وان لم يبق منه الا حطام ، واحتضنه بحنان وهو يهمهم : « **لن تخوننى ... يجب أن تقف هذا النزف المستمر .. تعقل قليلا !** »

وأدنى العمود من وجهه ، وما كادت بقاياه الباردة تلامس جذوة شفتيه ، حتى أنشب فى الثلج أسنانه ينحت منه فى شراهة مسعورة ، ويمتص عصيره كأنه سفاح راح يعب من دم فريسته عبا ...

وفاء « **دكرورى** » لنفسه ، فتعاظمه الجرم الذى اقترف ، فنحى العمود عنه ، وهو يختلج اختلاج صريع ، وانكب على وجهه ، يملكه شهاق ...

ثم تحامل على ساقيه متثاقلا ، ومشى فى بطء واعياء ...

عليه أن يعود الى القهوة ، مهما يكن من أمر ...

عليه أن يسلم لوح الثلج ، وان لم تبق منه الا أنقاض ....

عليه أن يؤدى واجبه ، وان كانت الخرقة التى حملها على كتفيه ليس فيها الا عصارة ماء ...

واستبد به عناد ومكابرة ، وقلبه يدق دقا عنيفا ...

واشتدت العاصفة الهوجاء ، تحمل معها الرمال ، وتدور بها كأنها دوامات ... وتخبط « دكرورى » فى سيره تخبط مخمور ، ثم انهوى ...

وانبطح على وجهه ، والخرقة المبللة فى حضنه ، يحوطها بذراعيه ...

وتراكمت الرمال رويدا على تلك الكومة الآدمية ، كأنما تصونها من عبث الطبيعة العشواء !

وما لبثت الكومة الآدمية تحت الرمال المنهالة عليها أن خفت حركتها ، ثم سكنت سكون الأبد ...

ولأول مرة فى تاريخ المصيف ، سجل أهل الشاطىء نبأ له خطر :

أن « دكرورى » حامل الثلج المثالى لم يصل الى القهوة فى موعده المحدود !

« محمود تيمور »